

محاضرات شهر ماي

مقياس: تاريخ الجزائر الثقافي

السداسي الرابع (السنة الثانية ليسانس)

الدكتور روابحي العياشي

1 - السياسة التعليمية الفرنسية

في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر نازع مسألة تعليم أبناء الجزائر تياران متناقضان في الرأي: أولهما كان يفضل تعليم أهل الجزائر و تثقيفهم، أما الثاني فكان يناهض ذلك و يدعو إلى تجهيلهم، و غلق كل أبواب العلم و المعرفة في وجوههم. و كان دعاة الرأي الثاني من أنصار نظرية الاستعباد التي تقوم على عنصر القوة باعتبارها الوسيلة الوحيدة لإخضاع الجزائريين و إذلالهم و قهرهم اجتماعيا و تدميرهم اقتصاديا و تذويهم فكريا و حضاريا و استغلالهم بأشنع الطرق و الوسائل الممكنة. و قد ساق أنصار هذا الرأي عدة حجج مؤداها أنه "لما كان تعليم الوطنيين يؤدي بالجزائر إلى خطر محقق سواء من الناحية الاقتصادية أو من ناحية التعمير الفرنسي، فإن الرغبة تميل إلى إلغاء التعليم الابتدائي".

غير أن هذا الرأي لم يصمد كثيرا أمام قوة حجج مؤيدي الاتجاه الآخر الذين اعتبروا التبريرات التي قدمها خصومهم تبريرات سقيمة و تنتفي فيها الوجاهة و الحصافة و النظرة الاستشراعية، ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن مصلحة المستعمر الفرنسي في الجزائر تقتضي تعليم أبناء الجزائر و الاهتمام بالمدرسة باعتبارها الوسيلة الفعالة لسلب الشعب الجزائري من هويته و موروثه الثقافي و شخصيته بصورة تدريجية، و أن النتائج التي يمكن لفرنسا أن تجنيها نتيجة لذلك أحسن بكثير و أكثر أثرا و أبعد مدى مما لو استعملت القوة مع هذا الشعب.⁽¹⁾

¹ يحي بوعزيز: السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري 1830-1954، د.م.ج، الجزائر، 1995، ص 162.

و لم يكن هدف الفرنسيين من وراء فتح المدارس أمام أبناء الجزائر هو تنوير عقولهم و تعليمهم، بل كانوا يهدفون إلى تكوين فئة تلعب دور الوسيط بينهم و بين الجزائريين ليعتمدوا عليها لاختراق المجتمع الجزائري و تعميق الفكر الكولونيالي في أذهان الجزائريين، و قد عبرت عن هذه الحقيقة إحدى الوثائق الرسمية الفرنسية الموجهة إلى وزير الحربية الفرنسي عام 1839م، و التي جاء فيها "... لقد بات من الضروري إنشاء مؤسسات ثانوية في بلدان الميتروبول لتفتح أبوابها أمام أبناء العائلات المسلمة الميسورة الحال، لتعلمهم أصول حضارتنا و أخلاقنا و كل معارفنا. و إذا أردنا أن نثبت أقدامنا في هذه المستعمرة، فلا مندوحة لنا من تكوين شباب و تلقينهم معارفنا، حتى يصبحوا وسطاء نافعين بيننا و بين إخوانهم في الدين، و سيتكفلون بمهمة إعطائهم الأفكار النيرة الصحيحة عن قوة فرنسا و عظمتها..."⁽²⁾

و كان مدير مدرسة المعلمين بالجزائر من أنصار نظرية تنوير عقول الجزائريين، إذ كان ينادي بضرورة تثقيف أبناء الجزائر للاتكاء عليهم في عملية بناء المشروع الكولونيالي حيث كتب: "... ليس من الكرم أو الجود في شيء أن ترغب الجامعة في نشر العلم في القبيلة، بل دعونا نقولها كلمة صريحة و نطلقها مدوية، إن ذلك في صالح فرنسا وحدها، و هو ما نضعه دائما نصب أعيننا. و قد أضفى على تعليمنا طابعا خاصا، كما ساعد مدرسينا على اتباع طرقهم و وسائلهم الخاصة، كما أضفى في الوقت نفسه على برامجنا طابعها الراهن. و أنه لمن الأهمية بمكان أن نثبت في أذهان الأهالي فكرة رفيعة و نقية عن وطننا و ذلك بتلقين تلاميذنا دروسا تتناسب و أعمارهم، كما تتفق و درجة ثقافتهم عن عظمة فرنسا و جيشها و ثروتها، و ليس من شك... في أن مركزنا سيكون أقوى دعامة لو استطعنا أن ندع الأهالي يفكرون من تلقاء أنفسهم و بمحض إرادتهم و يقولون فيما بينهم: " ألاما أقوى و أكرم هؤلاء الفرنسيين، إنهم أحسن ما نود أن يكون عليه أساتذتنا". إن المدرسة الأهلية في شكلها الراهن و بعملها الخيري المزدوج ليست أداة تجديد خلقي فحسب، بل هي على

²Yvonne Turin : op.cit, p 63.

وجه الخصوص أداة سلطة و سلطان و وسيلة نفوذ و سطوة، و ستخلق من رعايانا عضوا مفيدا جدا و ساعدا مخلصا لفرنسا..."⁽³⁾

و هكذا يظهر لنا مما تقدم أن المسألة لا تتعلق بنشر العلم و الثقافة والتهديب و تنوير عقول أبناء الجزائر كما يبدو من ظاهر السياسة الكولونيالية في مجال التعليم، و لكن الغرض الاستراتيجي هو مسح الشخصية الوطنية و إخماد الروح الوطنية من خلال تكوين وسطاء أهليين يكونون بمثابة السواعد المخلصة لفرنسا الاستعمارية لمساعدتها على تثبيت أركانها بالجزائر.

و بعد هذه النظرة العامة حول الجدل الذي أثارته مسألة التعليم في الجزائر في بداية الاحتلال، و مرامي و مقاصد السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر، نقول أن هذا التعليم الموجه أخذ مسارات مختلفة تتلخص في اتجاهين رئيسيين هما التعليم الوطني أو التعليم العربي الحر و التعليم الحكومي الرسمي، و في ما يلي سنتحدث بشيء من التفصيل على كل نوع من هذين النوعين.

أ - التعليم العربي الحر

و هو النوع الذي يحلو للبعض تسميته بالتعليم الوطني، و هو استمرار لنوع و طبيعة التعليم الذي كان يسود في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي أي خلال العهد العثماني. و قد كان يمارس في الزوايا التي كانت تبشر أدوارا علمية و تعليمية و اجتماعية و دينية و حتى سياسية. و قد تأثرت بالغزو الفرنسي و ما صاحبه من استيلاء على الأملاك الوقفية، و حروب المقاومة الوطنية التي اندلعت في وجه المحتل. و كانت مواد هذا التعليم تشمل القرآن الكريم، و الأصول و البيان و المنطق و مصطلح الحديث و الفقه و الحديث و السيرة و التصوف و الحساب و علم الوقت.⁽⁴⁾

³ يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص ص 162، 163.

⁴ أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحية في الجزائر، المرجع السابق، ص 62.

و قد تأثر بمحاصرة الإدارة الاستعمارية للزوايا التي يقدم فيها هذا النوع من التعليم، حيث استغلوا بعض رجالها و دسوهم بداخلها للتجسس على كل ما يجري فيها، و جردوهم من الزيارات التي كان يؤديها الناس لها بإذن منهم، و مع مرور الوقت تحول هذا التعليم تدريجيا إلى تعليم يغلب عليه الطابع التعبدى الصرف.⁽⁵⁾

و لم تتوقف سياسة الإدارة الاستعمارية الفرنسية تجاه التعليم العربى الحر عند هذا الحد، بل حاولت التضييق عليه، فأصدرت بتاريخ 18 أكتوبر 1892م مرسوما يقضى بتحجير فتح المدارس الفرنسية إلا برخصة من الحكومة الفرنسية، و يلاحظ أن الفرنسيين اتخذوا من هذا القانون مسوغا لغلق كل المدارس التي كانت تنشط في السابق أي قبل صدور هذا القانون⁽⁶⁾، و هو إجراء معيب و ينطوي على خرق واضح لأحكام القانون التي تنص على إلزامية عدم تطبيق القوانين في مثل هذه الحالات بأثر رجعي، بل يكون سريانه بأثر فوري إعتبارا من تاريخ صدوره في الجريدة الرسمية.

و الحقيقة أن الفرنسيين وجدوا صعوبات كبيرة في تطبيق أحكام هذا القانون على أرض الواقع، لأن التعسف في تطبيقه فتح المجال أمام الجزائريين للتحايل على أحكامه، حيث تحول قسم كبير من تلك المدارس إلى العمل بطريقة سرية.⁽⁷⁾

و إذا كان الفرنسيون قد سمحوا بممارسة هذا النوع من التعليم في إطار ضيق أي الإطار الذي تحدده الرخصة التي تمنحها الإدارة الفرنسية، فإنه ليس من السهل الحصول عليها بسبب شروطها القاسية، ذلك أن الفرنسيين كانوا لا يبدون موافقتهم على فتح هذا النوع من المدارس إلا إذا روعيت عدة شروط أهمها:
-إلزامية التقيد الحرفي بأحكام مرسوم 1892م.

⁵ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 394، 395.

⁶ أحمد الخطيب: المرجع السابق، ص 63.

⁷ صالح بن نبيلي فركوس: المرجع السابق، ص 227.

-ألا يتعدى عدد الراغبين في التسجيل داخل هذه المدارس ثمانية تلاميذ، مع إمكانية تخفيض هذا العدد إل تلميذين إثنين في المدرسة في بعض الحالات الاستثنائية.

-أن تجرى الدروس داخل هذه المدارس خارج أوقات التعليم في المدارس الفرنسية العامة.

و إلى جانب هذه الشروط الموضوعية، هناك شرط آخر يتعلق بسيرة طالبها، فقبل أن تمنح الإدارة الفرنسية هذه الرخصة، فإنها تباشر عملية تحقيق إداري يتحري بدقة التوجهات السياسية و الدينية لطالبها، والذي يجب أن يكون مخلصا و وفيا لفرنسا. فعلى سبيل المثال فقد تقدم السيد عبد الله بلقاسم ولد محمد بطلب رخصة إلى الجهة الإدارية المختصة بذلك في مدينة وهران عام 1915م، و بعد تحقيق معمق في سيرته تمت الموافقة عليها لأن طالبها استوفى كل الشروط الشكلية و الموضوعية التي يفرضها مرسوم 1892، ضف إلى ذلك أنه كان رجلا طيبا و مخلصا لفرنسا و ينتمي إلى الطريقة الدرقاوية.⁽⁸⁾

و غني عن البيان أن شرط الإخلاص الذي يتحدث عنه الفرنسيون في هذه الحالة كان يخضع للسلطة التقديرية المطلقة للأعوان الإداريين الفرنسيين، فإذا لاحظوا فيه أنه يكافح من أجل إنقاذ الجزائر من براثن الجهل و الأمية و يدعو إلى نشر العلم و الفضيلة، و تعليم اللغة العربية، و مجابهة رغبة الكولون التجهيلية و مشاريع فرنسا الاستدمارية حرموه من هذه الرخصة و اتهموه بعدم الإخلاص لفرنسا. و أما إذا أدركوا أنه سيساهم في تغذية روح التفسخ الديني و الانحلال الخلقي و قيادة دعوات الجهل و الضلالة و البدع و الخرافات و أفكار الشرك بالله رخصوا له بفتح تلك المدرسة.

و الحقيقة أن سياسة التضييق الممارسة ضد التعليم العربي الحر كانت قد أدت إلى تراجع بصورة تدريجية، ففي عام 1865 مثلا كان عدد التلاميذ الجزائريين الذين يلتحقون

⁸أحمد الخطيب: المرجع السابق، ص 63.

بمدارسه بقدر بنحو 13 ألف تلميذ، و لكن لم يأت عام 1880 حتى تناقص عددهم بشكل لافت للانتباه و وصل إلى ثلاثة آلاف تلميذ.⁽⁹⁾

و يبدو أن الأحكام التي جاء بها مرسوم 18 أكتوبر 1892م السالف الذكر، لم تحل مشكلة التعليم العربي الحر بالطريقة التي كان الفرنسيون يخططون لها، و ربما هذا ما يفسر الاصرار المستمر للإدارة الاستعمارية الفرنسية على نهجها المعادي لهذا النوع من التعليم. و يتجلى هذا الاصرار في القانون الذي أصدره المشرع الفرنسي بالجزائر في 24 ديسمبر 1904م، و الذي أكد فيه مرة أخرى على مسألة منع كل جزائري من فتح أو تولي إدارة مدرسة عربية أو كتاب لتعليم القرآن الكريم إلا بترخيص خاص من محافظ العمالة إذا كان طالب هذا الترخيص يقطن في مناطق الحكم المدني أي المناطق الشمالية للجزائر أو الحاكم العسكري إذا كان طالب هذا الترخيص يقطن في مناطق الحكم العسكري أي المناطق الجنوبية.⁽¹⁰⁾

و من جانب آخر تحدث هذا القانون عن البرامج الدراسية و المواد التي تدرس في هذه المدارس وفقا لما يلي:

- أنه ألزم القائمين عليها بتدريس القرآن الكريم و الاقتصار على تحفيظه فقط، أي أنه منع تفسيره، و شدد على عدم التعرض بأي شكل من أشكال التفسير لآيات القرآن الكريم التي تحض المسلم على الجهاد و تحارب الظلم و الاستبداد.

- أنه حرم هذه المدارس من تدريس مادة تاريخ الجزائر خاصة و التاريخ العربي و الإسلامي عامة، كما حرمها أيضا من تدريس جغرافية الجزائر و البلاد العربية، و الأدب العربي بجميع فنونه، و المواد الرياضية والعلمية.⁽¹¹⁾

⁹ عبد الله شريط، محمد الملي: المرجع السابق، ص ص 218، 219.

¹⁰ أحمد الخطيب: المرجع السابق، ص 154.

¹¹ أحمد الخطيب: الثورة الجزائرية دراسة و تاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1958، ص ص 129، 130.

هذا و قد خصص المشرع الفرنسي شقا جزائيا تحدث فيه عن العقوبات التي تطال المخالفين لأحكامه إذ توعدهم بالحبس و الغرامة المالية أو بالعقوبتين معا، كما أنه منح الجهة الإدارية المانحة لرخصة التعليم حق سحبها لأجل مسمى أو بصورة نهائية إذا رأت أن المدرسين خالفوا قواعد الأخلاق و النظام العام! أو أنهم فتحوا أبواب مدارسهم أمام الأطفال الذين هم في سن التمدرس أثناء ساعات التعليم في المدارس الفرنسية، و ذلك في القرى و الأرياف القريبة من المدارس الفرنسية بمسافة تقل عن ثلاثة كيلو مترات، حتى لا يرفض الأطفال الالتحاق بالمدرسة الفرنسية و يلتحقون بمدرسة التعليم العربي الحر. و بما أن هذا القانون كان قد منح السلطة التقديرية الواسعة للإدارة الوصية، فقد تعسف أعوانها في تطبيق أحكامه و جعلوها سلاحا يشهرونه في وجه كل معلم أو مدير مدرسة أو كتاب قرآني يظهر غير وطنية صادقة على لغته أو دينه أو وطنه، فيسارعون إلى توقيفه و غلق مدرسته أو كتابه بصورة مؤقتة أو دائمة، و قد يحولوه على القضاء الذي قد يوجه له تهمة تعليم اللغة العربية دون ترخيص إداري، أو تهمة المساس بالنظام العام و مخالفة قوانين الجمهورية و لاسيما قانون 24 ديسمبر 1904، غيرها من التهم الأخرى، لذلك زج بعدد غير قليل من المعلمين و مديري المدارس العربية في السجون إلى جانب اللصوص و المنحرفين و محترفي الجريمة.⁽¹²⁾

و رغم ذلك بقيت بعض الزوايا في الأرياف تقدم هذا النوع من التعليم، و تمكنت من التأقلم مع الأوضاع الجديدة التي فرضتها التشريعات الفرنسية مثل زوايا منطقة الزواوة، و زاوية طولقة ببسكرة، و زاوية الهامل ببوسعادة، و زاوية قصر البخاري و غيرها، و اشتهر عدد كبير من علماء الزوايا الريفية أمثال الشيخ محمد بن بلقاسم و تلميذه محمد بن عبد الرحمان

¹² رابح تركي: المرجع السابق، ص 155.

الديسي، و بلقاسم البوجليلي، و ابن أبي داود، و عدة غلام الله، و علي بن عثمان و غيرهم من العلماء الذين انتصبوا للتدريس وفقا للرؤية التي حددها المشرع الفرنسي.⁽¹³⁾

و هكذا استمر التعليم العربي الحر في نشاطه ضمن الإطار الفرنسي بواسطة وسائل تقليدية كاللوحه و مداد "السمخ"، و لم يكن أمام الجزائريين الرافضين لمخاطر سياسة الإدماج خيارات أخرى غير ذلك، حيث سدت في وجوههم كل سبل التعليم العربي الحديث، و صمت آذان الفرنسيين عن سماع مطالب الجزائريين المتعلقة بحقوقهم في التعليم ضمن الإطار العربي الإسلامي، و فتحت أمامهم أبواب المدارس الفرنسية وفقا لإجراءات و تراتيب خاصة، و أطر ضيقة. و إذا كان السواد الأعظم من الجزائريين يفضل إرسال أبنائه إلى مدارس التعليم العربي الحر رغم بساطتها و قلة إمكانياتها، و يرفض إرسالهم إلى المدارس الفرنسية رغم إمكانياتها المتطورة، فلأن أبنائهم كانوا ملزمين بإنشاد السلام الوطني الفرنسي " لامارسيلاز" داخل هذه المدارس⁽¹⁴⁾، و كانوا يحفظون حفظا كاملا إسم كل قرية فرنسية، بينما كانوا يجهلون الحد الأدنى عن تاريخ و جغرافية بلادهم الجزائر، و تجدهم ملمين إلماما واسعا و دقيقا بتفاصيل تاريخ فرنسا لأنهم كانوا يتلقون دروسا تركز كثيرا على هذا الجانب⁽¹⁵⁾، بل أكثر من ذلك أنهم كانوا يلقنون في حصص مادة التاريخ منذ الأسبوع الدراسي الأول أن الجزائر كانت تسمى قديما (غاليا) (LaGaule)، وأن أجدادنا كانوا يسمون (الغاليين) (LesGaulois)⁽¹⁶⁾

و لقد كان من الطبيعي جدا أن " يشيطن " الجزائريون المدارس الفرنسية، و يرفضون إرسال أبنائهم إليها و يكتفون بما كان يقدم لهم في مدارس التعليم العربي الحر، و قد لاحظ المسؤولون الفرنسيون ذلك، و أكد رئيس القطاع العسكري القسنطيني الجنرال (دي سال)

¹³ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 396.

¹⁴ أحمد الخطيب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحية في الجزائر، المرجع السابق، ص 63.

¹⁵ يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 164.

¹⁶ Charles-Robert Ageron : Les Algériens Musulmans et la France 1871-1919, Tome Second, op.cit, p 956.

(De Salles) هذه الحقيقة حينما قال " ... عموما إذا وضعنا في الميزان الجهود التي بذلناها في سبيل نشر العلم بين الأهالي، فلا بد أن نقول أننا لم نحقق أي نجاح يذكر، ذلك أن الأهالي يعتقدون أن العلم و الدين هما في الحقيقة وجهان لعملة واحدة، و أن كل خطوة نبذلها في سبيل تحسين مستوى أحدهما تجعلهم يتوجسون منها خيفة..."⁽¹⁷⁾

و قد انعكس هذا الوضع على حالة التعليم العربي في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية، و هي الحالة التي وصفها محمد فريد عندما زار الجزائر عام 1901م حينما قال: " إن حالة التعليم في الجزائر سيئة جدا، و لو استمر الحال على هذا المنوال لحلت اللغة الفرنسية محل العربية في جميع المعاملات، بل ربما تدرس العربية بالمرّة مع مضي الزمن، فلا الحكومة تسعى في حفظها، و لا تدع الأهالي يؤلفون الجمعيات لفتح المدارس"، و يستمر قائلا: " هجرت ربوع العلم و خربت دور الكتب و صارت الديار مرتعا للجهل و الجهلاء، و كادت تدرس معالم اللغة العربية الفصحى، و تطرقت إلى اللغة العامية الكلمات الأجنبية، بل أصبحت اللغة الفرنسية هي لغة التخاطب في العواصم مثل وهران و قسنطينة و عنابة و غيرها".⁽¹⁸⁾

و الواقع أن الشعب الجزائري لم يستسلم لإرادة المستعمر الفرنسي و مشاريعه الاستعمارية، بل قاومها و تصدى لها بقوة عن طريق نخبة الدينية و زعماء رأيه، و كان على رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي تألم كثيرا لرؤية الضحالة التي كانت عليها الحياة الثقافية في الجزائر، فقال: " هذا القطر قريب من الفناء ليست له مدارس تعلمه و ليس له رجال يدافعون عنه و يموتون من أجله، بل كان في اضطراب دائم مستمر... كان أبنائنا يومئذ لا يذهبون إلا إلى المدارس الأجنبية التي لا تعطيهم غالبا من العلم إلا ذلك الفتات

¹⁷Yvonne Turin. op.cit, p 118.

¹⁸أنور الجندي: الفكر و الثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، الدار القومية للطباعة و النشر، القاهرة، مصر، 1965، ص 133.

الذي يملأ أدمغتهم بالسفاسف حتى إذا خرجوا منها خرجوا جاهلين لدينهم و لغتهم و قوميتهم، و قد ينكرونها"⁽¹⁹⁾

و على هذا الأساس أسس عبد الحميد بن باديس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931م التي احتضنت نشر التعليم العربي الحر على نطاق واسع، و فتحت أبواب مدارسها على مصراعيها لتستقبل آلاف التلاميذ الذين فضل أولياؤهم إرسالهم إليها. و قد صور لنا الشيخ البشير الإبراهيمي أحد أركان هذه الجمعية حركة التعليم العربي الحر التي حملتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على عاتقها رغم التضييقات الإدارية التي كانت تمارسها الإدارة الاستعمارية الفرنسية ضدها فيقول: " ... إن مدارسنا (مدارس جمعية العلماء) عامرة بهذا الصنف من الأطفال و هو هذا الصنف المتشرد، الضائع، الذي لم يجد إلى التعليم الحكومي سبيلا، و أن عدده لكثير إنه ليقارب التسعين بالمائة من أبناء الأمة التي تدفع الضرائب. و تقوم بواجبات الجندية... و ما كنا في يوم من الأيام حربا للتعليم الفرنسي على تفاهته!! بل نحض عليه و نعهده بابا من أبواب الثقافة، و سلاحا من أسلحة الحياة، و إنما نريد أن نجتمع لأبنائنا بين التعليمين جمعا للمصلحتين و ما داموا محرومين من التعليم الفرنسي فمن حقنا و من واجبنا و من الإحسان إلى أبنائنا أن نشغلهم النهار كله بتعلم دينهم، و لغتهم، بدليل أننا لا نقبل في مدارسنا تلامذة الفرنسية إلا بعد الرابعة و النصف مساء لئلا يجرموا من أحد التعليمين على ما في هذه الساعات الزائدة من إرهاق للمعلمين و التلامذة عندنا. هذا ما نراه نحن أما الحكومة فإنها ترى أن بقاء أبنائنا في الأزقة معرضين للشر و الفساد خير من تعليمنا أيهاهم تعليما عربيا و إسلاميا فلما صممنا على أداء الواجب علينا لديننا و أمتنا، صممت على المعاكسة والتضييق...".⁽²⁰⁾

¹⁹ أحمد الخطيب: المرجع السابق، ص 64.

²⁰ محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1964، ص ص 239، 240.

و بالإضافة إلى حركة التعليم التي احتضنتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة قسنطينة، فقد تمكنت بعض المدارس من الحصول على ترخيص رسمي لمباشرة التعليم العربي الحر في بعض جهات الوطن مثل مدرسة الشبيبة الإسلامية التي تأسست عام 1927م بالجزائر العاصمة، و استمرت تؤدي رسالتها التربوية بكفاءة و اقتدار لمدة خمسة عشر عاما، و مدرسة السلام التي تأسست عام 1929م بالجزائر العاصمة كذلك، و قد تعاونت مع مدرسة الشبيبة الإسلامية في نشر التعليم العربي بين أبناء العاصمة، و المدرسة العربية القرآنية عام 1929م كذلك في العاصمة التي كان لها منهاج جديد للتعليم العصري، و مدرسة جمعية الإصلاح الخيرية في مدينة غرداية عام 1928م، كما تأسست مدارس عربية أخرى في مدن جزائرية أخرى كتلمسان و بجاية، و وادي ميزاب و غيرها.⁽²¹⁾

و يطول بنا الحديث إذا ذهبنا نتبع و نرصد بدقة كل الجوانب المتعلقة بالتعليم العربي الحر أو التعليم الوطني و التضيق الذي مارسه المستعمر الفرنسي عليه و على اللغة العربية و الهوية الوطنية سيرا مع سياسة الفرنسة و الإدماج و التنصير التي كان يهدف إلى فرضها على الشعب الجزائري منذ البدايات الأولى للاحتلال، و ردود الفعل الوطنية العنيفة المتمثلة في صمود رجال التعليم العربي الحر إنطلاقا من الزوايا و في إطار الحركة الوطنية و لاسيما الحركة الإصلاحية بقيادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. و نكتفي بالقول أنه رغم محاصرة الإدارة الاستعمارية له منذ البداية، و رغم الإمكانيات البسيطة التي كان يعتمد عليها إلا أن خريجه كانوا قد أبلوا بلاء حسنا، و أبدوا كفاءة عالية في مجالات معينة. و قد اعترف الفرنسيون بتفوق أبناء الزوايا في امتحان الدخول لسلك القضاء عام 1869م، و أظهرت النتائج أن نسبة نجاحهم كانت أعلى مقارنة مع خريجي المدارس الحكومية الثلاث، و قد سيطروا على هذه الوظيفة إلى غاية عام 1880م.⁽²²⁾ يضاف إلى هذا الجهود التي بذلتها

²¹ رابح تركي: التعليم القومي و الشخصية الوطنية 1931-1956، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، المرجع السابق، ص ص 239-243.

²² أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 395.

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في نشر هذا التعليم و العمل على إصلاحه من حيث النظم و البرامج و طرق التدريس، جعلت منه تعليما عصريا تحطمت عنده مشاريع المسخ الاستعماري، و كان ينافس أو على الأقل يضاهي التعليم الحكومي الفرنسي الذي سنعرض له تباعا.

ب - التعليم الحكومي الرسمي

يقسم التعليم الحكومي الرسمي أثناء الحقبة الاستعمارية الفرنسية إلى ثلاثة أنواع: النوع الأول خاص بالفرنسيين، و النوع الثاني خاص بالجزائريين، بينما النوع الثالث كان مزدوجا، و في ما يلي نتحدث عن كل نوع بشيء من التفصيل.

أولا : التعليم الخاص بالفرنسيين

واكب هذا النوع من التعليم بداية الاحتلال الفرنسي حيث طبقه الفرنسيون بطريقة منظمة منذ عام 1833م، و قد شمل كل مراحل التعليم من الابتدائي إلى مرحلة التعليم العالي. و كان يتوسع كلما ازداد تقاطر الكولون على الجزائر، غير أن هذا الاتساع كان يمس بالدرجة الأولى مرحلة التعليم الابتدائي لارتباطه بأبناء المستوطنين⁽²³⁾، و هو يخضع من الناحية المبدئية للنظام التعليمي المطبق في فرنسا.

و قد استحدث الفرنسيون في كل عمالة جزائرية مراقبا عاما للتعليم الابتدائي، و مراقبين ابتدائيين، و مجلسا عماليا للمراقبة، و التعليم في هذه المرحلة إجباري في كل المدارس على الجنسين من سن السادسة إلى سن الثالثة عشر من أبناء الأوروبيين، أما أبناء الأهالي فلا يكون إجباريا عليهم إلا إذا صدر أمر من الجهات العسكرية العليا التي يمثلها الوالي العام⁽²⁴⁾، و معلوم أن أبناء الجزائريين المعنيين في هذا السياق هم الذين إنحاز أولياؤهم إلى الفرنسيين، مثل أبناء رجال الدين الرسميين الذين قبلوا الوظائف الدينية الرسمية، و أبناء القياد و الأغوات و الوسطاء الأهليين الذين تولوا الوظائف الرسمية، و

²³ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 387.

²⁴ أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 274.

أبناء الجنود المرتزقة الذين انخرطوا في صفوف الجيش الفرنسي⁽²⁵⁾، و كان التعليم الابتدائي يشمل المدارس الآتية:

-مدرستان لتخريج المدرسين: الأولى في بوزريعة بالجزائر العاصمة و الثانية في قسنطينة.
-ثلاث مدارس لتخريج المدرسات: الأولى في مليانة، والثانية في قسنطينة، و الثالثة في وهران.

10- مدارس ابتدائية عليا خاصة بالذكر تقع في : الجزائر و بوفاريك و الحراش و قسنطينة و سيدي بلعباس و مستغانم و مليانة و باتنة و سطيف و المدية.
8- مدارس ابتدائية عليا للإناث تقع في: الجزائر و البليدة و مليانة و قسنطينة و معسكر و مستغانم و سطيف و سيدي بلعباس.

1530- مدرسة ابتدائية تضم 2791قسما.

106- مدرسة أمومة عامة.⁽²⁶⁾

و بالموازاة مع ذلك أنشأ الفرنسيون كذلك مدارس تقدم تعليما يخص المرحلة المتوسطة، و قد كانت مدارسهم في الأصل مخصصة لخدمات الدين الإسلامي أو للجيش. و كانت هذه المؤسسات تسمى (كوليجات)، و تطبق هي الأخرى البرامج الرسمية المطبقة في فرنسا التي كانت تركز على تعليم اللغات القديمة (اليونانية و اللاتينية)، كما جرى الاهتمام كذلك بالتعليم الثانوي، حيث فتح الفرنسيون عدة مدارس خاصة بهذه المرحلة، إلا أن طلابها كانوا يلتحقون بفرنسا للحصول على شهادة البكالوريا. و في عام 1862م دشّن الفرنسيون أول ثانوية فرنسية بالجزائر، و سموها ثانوية بيجو، (و هي الثانوية المعروفة حاليا بثانوية الأمير عبد القادر) و قد شيدت على أنقاض المقابر الإسلامية. و بعد عام 1871م

²⁵ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، 387.

²⁶ أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 274.

تكونت بالجزائر عدة ثانويات في الجهات الثلاث من الوطن خاصة في الجزائر العاصمة، و
وهران و قسنطينة و غيرها.

أما بالنسبة للتعليم العالي، فإن أول مدرسة للطب و الصيدلة أسست عام 1857م،
و كانت مهمتها تنصرف إلى دراسة الأعشاب و الأمراض المختلفة في الجزائر، إضافة إلى
تكوين مساعدين في التمريض، و قد سمح لعدد قليل من الجزائريين بدخولها، غير أن هذا
القطاع التعليمي تأسس بصورة رسمية عام 1879م⁽²⁷⁾، حيث تأسست جامعة الجزائر لتضم
أربعة كليات أولها كلية الحقوق، و هي تدرس الحقوق العامة و الحقوق الفرنسية والنظم و
القوانين الجزائرية و الإسلامية، و تمنح شهادة الليسانس و الدكتوراه في الحقوق، و ثانيها هي
كلية الطب و الصيدلة، و ثالثها كلية الآداب التي تركز على تعليم المشرقيات و تدرس
الآداب الفرنسية، و الآداب و اللغات القديمة، و الآداب و اللغات الحديثة، و الفلسفة
الإسلامية، و تاريخ الفلسفة الإسلامية، و اللغة العربية الفصحى، و الآداب العربية الحديثة،
و الآثار الإفريقية، و الجغرافيا الإفريقية، و تاريخ إفريقيا الشمالية و تاريخ التمدن الإسلامي
و نحو ذلك، و تمنح هذه الكلية لخريجها شهادة العلوم التاريخية و شهادة الدراسة العليا للغة
العربية و آدابها، و شهادة للغة العربية، و أخرى للغة القبائلية، و شهادة الكفاءة لتدريس
اللغة العربية بالثانويات و الكوليجات، و تمنح أيضا شهادة الدكتوراه في الآداب. أما بالنسبة
للكلية الرابعة فهي كلية العلوم.⁽²⁸⁾

و قد نشطت هذه الكليات الأربعة التي شكلت نواة جامعة الجزائر في خدمة مقاصد
الإدارة الاستعمارية الفرنسية، فكلية الآداب كانت مرتعا للاستشراق الفرنسي، و كلية
الحقوق شكلت مركزا لتسخير الشريعة الإسلامية لأحكام القانون الفرنسي، و كانت كلية
العلوم أيضا تترجم مقاصد المستعمر، و لم تكن هذه الكليات تتمتع بالاستقلالية من حيث

²⁷ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 387، 388.

²⁸ أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 276

البرامج و الشهادات، و إنما كانت تابعة لفرنسا، ذلك أن الطالب الفرنسي في الجزائر عليه أن يجري إمتحان تخرجه النهائي في فرنسا ضمنا للمحافظة على المستوى و أيضا ضمنا للتبعية.⁽²⁹⁾

و إذا كان الفرنسيون قد سمحوا لبعض الفئات من الجزائريين بالانخراط في سلك التعليم العالي، فيجب أن يفهم أن هذه الفئة "المحظوظة" كان عددها ضئيلا جدا، و لا يتناسب ألبتة مع نسبة سكان الجزائر، و قد لاحظ المؤرخ الفرنسي " أجيرون " **Ch.R.Ageron** أن حصة الأسد من عدد طلبة التعليم العالي تعود إلى الفرنسيين و الأوروبيين، أما عدد الطلبة الجزائريين فقد كان هزيلا و لا يكاد يذكر. ففي عام 1914م كان عدد الطلبة الجزائريين المتخرجين من الجامعة كما يلي:⁽³⁰⁾

الكلية	عدد الطلبة	طبيعة الشهادة
الحقوق	12	شهادة ليسانس في الحقوق.
	01	شهادة الكفاءة في الحقوق.
الطب	01	شهادة الدكتوراه في الطب
	01	شهادة الدكتوراه في الصيدلة.
	03	شهادة قابلة.

²⁹ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 388، 389.

³⁰ Charles-Robert Ageron : les Algériens Musulmans et la France, 1871-1919, Tome Second, op.cit, p 962.

شهادة الدراسات العليا في اللغة العربية	01	الآداب
شهادة اللغة العربية	33	
شهادة اللغة البربرية	03	
شهادة تدريس اللغة العربية في التعليم الإعدادي	193	
شهادة تدريس اللغة البربرية في التعليم الإعدادي	03	
شهادة ليسانس في العلوم	02	العلوم
شهادة العلوم الطبيعية	22	

و قد قدر عدد طلبة الجامعة الجزائرية عشية الاحتفال الفرنسي بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر عام 1930 بـ 1890 طالب موزعين وفقا للجدول الآتي: (31)

الكلية	الطلبة الجزائريون	الطلبة الفرنسيون و الأوروبيون
الحقوق	17	831
الطب	07	324
الصيدلة	06	211
العلوم	14	198
الآداب	33	249

و بهذا يتأكد لنا مرة أخرى أن عدد الطلبة الجزائريين كان منخفضا جدا حيث قدر خلال هذه السنة التي احتفل فيها الفرنسيون بمئوية احتلال الجزائر بـ 77 طالبا، و بالمقابل كان عدد الطلبة الفرنسيين و الأوروبيين مرتفعا جدا حيث وصل إلى 1.813 طالبا. و هناك صنف آخر من التعليم جربه الفرنسيون في الجزائر و أحقوه بالتعليم الخاص بالفرنسيين، و كانت حلقاته موجهة لهم دون سواهم أي أنه كان محرما على الجزائريين مهما كانت درجة ولائهم و قربهم للفرنسيين، و يسمى هذا الصنف بحلقات اللغة العربية أو كراسي اللغة العربية. و قد طبقوه تلبية لحاجة الإدارة الفرنسية في فهم لغة الجزائريين و

³¹ صالح بن نبيلي فركوس: المرجع السابق، ص ص 213، 214.

طبائعهم و ذلك تمهيدا لعملية إدماجهم في البوتقة الفرنسية. و قد طبق الفرنسيون أول تجربة له في بداية الاحتلال على يد أحد الأساتذة المشاركة و هو " جوني فرعون". و في عام 1836م عهد هذا الصنف إلى أحد الفرنسيين بالجزائر العاصمة و هو " برينيه"، ثم انشئت له حلقات أخرى في قسنطينة و وهران. و اشتهر في هذا النوع من التعليم أساتذة لامعون أمثال (شيربونو)، و (هوداس)، و (ماشويل)، و كانت حلقاته تستهدف تدريس اللغة العربية العامة للفرنسيين الذين سيشغلون مناصب إدارية تتطلب إتصاهاهم المباشر و اليومي مع الأهالي. و كانت معرفة اللغة العربية الدارحة شرطا أوليا لتوظيف الفرنسيين في هذه المناصب الحساسة. و كان هذا التعليم يكون كذلك المترجمين العسكريين و القضائيين، و قد طلب كذلك من المدرسين فيه أن ينشروا اللغة الفرنسية بين أعيان الموظفين الجزائريين. و قد تواصل العمل به إلى حوالي عام 1877م حينما أدمجه الإصلاح التعليمي في المدارس العربية — الفرنسية الرسمية الثلاث و حول أساتذته إلى هذه المدارس و أشرفوا عليها إداريا و بيذاغوجيا.⁽³²⁾

ثانيا: التعليم الخاص بالجزائريين

كان التعليم الخاص بالجزائريين على ثلاثة أنواع: تعليم عربي، و تعليم فرنسي، و تعليم مزدوج.

-التعليم العربي

ترك هذا النوع من التعليم في بداية الأمر إلى الزوايا التي كانت تقدم دروسا في التعليم الابتدائي و الثانوي بشكل مستمر و مجاني. ففي المرحلة الابتدائية كان التلميذ يتعلم فيها

³² أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 389.

القراءة و الكتابة و بعض السور القرآنية الصغيرة، أما المرحلة الثانوية فكان يتعلم فيها العقيدة، والتشريع أو الفقه، و النحو، والحساب.⁽³³⁾

و يبدو أن الفرنسيين عملوا على تنظيمه و تقنيه في نهاية القرن 19م، حيث صدر قرار حكومي مؤرخ في 30 جوان 1898م يحدد الشروط و الشكليات التي يفرضها القانون على المدرسين في هذا السلك التعليمي، حيث حددهم خلال هذه السنة بـ 33 مدرسا موزعين على 33 بلدة من بلاد الجزائر، كما اشترط أن يكونوا متخرجين من القسم العالي بالمدرسة الثعالبية ليعلموا الناس النحو والفقه أو التوحيد. و لم يكن لهم برنامج رسمي واضح يطبقونه أو منهاج دراسي ينفذونه، و إنما كانوا يعلمون المتعلمين حسب اجتهاداتهم الخاصة أو حسب رغبات الناس.⁽³⁴⁾

-التعليم الفرنسي

مر هذا النوع من التعليم بعدة مراحل و عرف عدة أصناف، و تأثر بالتطورات التي عرفتها الحركة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر، ففي المرحلة الأولى التي امتدت إلى غاية عام 1850م تميز بالإهمال المطلق من طرف الفرنسيين الذين كانوا منشغلين بالمقاومة الشعبية و مقاطعة أهل الحضر للمدرسة الفرنسية، و خلال هذه المرحلة فتح الفرنسيون ثلاث مدارس له في الجزائر العاصمة و عنابة و وهران، و سموها مدارس مشتركة (عربية/فرنسية) غير أنها لم تستقطب العدد الكافي من التلاميذ، و قد لوحظ عليها قلة المواظبة و الاهتمام.⁽³⁵⁾

و لما رأت السلطات الاستعمارية الفرنسية أنها بحاجة إلى تكوين طبقة من العلماء يتولون المناصب الشرعية أصدرت قرارا مؤرخا في 30 سبتمبر 1850 ينص على تأسيس مدارس عربية إسلامية في المدينة و تلمسان و قسنطينة، و قد نقلت من بعد مدرسة المدينة إلى البليدة ثم إلى الجزائر العاصمة.

³³ صالح بن نبيلي فركوس: المرجع السابق، ص 221.

³⁴ أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 277.

³⁵ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 390.

و يعين خريجو هذه المدارس كمساعدين و كتاب، و قضاة و أئمة في المناطق النائية. و تسمى هذه الوظائف بوظائف الدرجة الثانية. أما الطلبة الذين يرغبون في الوصول إلى رتبة مفتي أو قاض فعليهم الالتحاق بمدرسة الثعالبية التي يمحزون فيها بنجاح عامين دراسيين، و يكلل مسارهم الدراسي بشهادة العلوم العليا. غير أن الانتقال إلى مدرسة الثعالبية كان يتوقف على اختيار إدارتها لعشرة طلاب فقط يتم انتقاؤهم من بين خريجي المدارس الثلاث، وفقا لمعايير دقيقة.

و تخضع هذه المدارس لمراقبة السلطات العسكرية الفرنسية لأن المادتين الثامنة و التاسعة من مرسوم إنشائها اعتبرتها " مدارس ذات طبيعة سياسية"، أما بالنسبة للبرامج الدراسية التي تطبق في هذه المدارس فتشمل القواعد و الأدب و القانون و التاريخ و الجغرافيا و النظام الإداري و الحساب و مبادئ الهندسة و العلوم الطبيعية و الكونية و حفظ الصحة، و هي مواد كلها تقدم باللغة الفرنسية. أما مبادئ اللغة العربية و التوحيد و الفقه الإسلامي فتقدم باللغة العربية. و قد وجهت انتقادات شديدة إلى هذه المدارس من طرف بعض المحافظين و المفكرين المسلمين الذين انتقدوا برامجها و مدرسيها، كما أن بعض الفئات الوطنية كانت تنظر إلى خريجها على أنهم خونة و عملاء لأنهم سيعملون على ترجمة إرادة المحتل الفرنسي على مستوى المناصب التي يشغلونها.⁽³⁶⁾

و في عام 1877م تم إدماج هذه المدارس في النظام التعليمي الفرنسي، و سميت بالمدارس الفرانكو-إسلامية من حيث البرامج و الإدارة و التوجيه. و في عام 1892م تعرضت إلى تغيير آخر أدى إلى فرنستها أكثر. أما آخر تغيير مس هذا النوع من المدارس فكان عام 1895م حيث تم استحداث قسم عال في مدرسة العاصمة ليستقبل الطلبة الراغبين في الارتقاء إلى مناصب عليا.⁽³⁷⁾

³⁶ أحمد الخطيب: المرجع السابق، ص ص 66، 67.

³⁷ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 393.

-التعليم المزدوج

تجسد هذا النوع من التعليم في فتح أول معهد إمبراطوري عربي - فرنسي بالجزائر العاصمة عام 1858م بناء على أحكام مرسوم إنشاءه الصادر في 14 مارس 1857م، و كان الهدف من وراء فتح هذا النوع من التعليم هو تكوين نخبة جزائرية مزدوجة الثقافة (عربية فرنسية)، لذلك فإن الفئات التي كان يستهدفها التعليم المزدوج هي فئة الأعيان الجزائريين و عليا القوم، ذلك أن الفرنسيين اقتنعوا أنه " لا مندوحة لهم من توجيه الخطاب أولا و قبل كل شيء إلى الأعيان و وجهاء القوم". و قد برر وزير الحرية الفرنسي الماريشال (فايون) (Vaillant) أحد مهندسي هذا النمط التعليمي إنشاء أول معهد عربي-فرنسي كما يلي:

"... إذا أرادت فرنسا الوصول إلى قلوب الأوساط الشعبية الأهلية، فما عليها إلا البدء بفتح أبواب التعليم أمام الطبقات الراقية من المجتمع الأهلي، و سوف يسارع إلينا أبناء رؤساء الأهالي و العائلات الكبرى إذا طلبنا منهم الانخراط في منظومتنا التعليمية لانتهاج المعارف و العلوم التي تناسب أوضاعهم الاجتماعية..."⁽³⁸⁾

و على هذا الأساس فقد وضع برنامج دقيق لهذا المعهد يتوخى الغرض الاستراتيجي الذي أنشئ لأجله، حيث كان يجمع بين التلاميذ الجزائريين والفرنسيين في آن واحد. و عندما نجحت أول تجاربه بالعاصمة أنشأ الفرنسيون معهدا على غرار بقسنطينة عام 1867م، و وقع التفكير في إنشاء معهد آخر في وهران أو تلمسان بالغرب الجزائري، غير أن هذه الفكرة أجهضت في مهدها بسبب تغيير النظام السياسي الفرنسي عام 1870م، فوقع التراجع عن فكرة إنشاء المعهدين السابقين.⁽³⁹⁾

و الواقع أن هذا التراجع كان قد مس السياسة التعليمية الفرنسية برمتها في الجزائر التي أثارت اعتراض المستوطنين الذين سيطروا على زمام أمور الجزائر بعد عام 1870م. و قد

³⁸ Charles-Robert Ageron : Les Algériens Musulmans et la France 1871-1919, Tome Premier, op,cit, p 321.

³⁹ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 394.

حاول الوزير (جول فيري) (Jules Ferry) إدراكا منه لأهمية نشر التعليم الفرنسي بين الأهالي كوسيلة للقضاء على ثقافتهم الوطنية أن يعمل على تطوير المنظومة التعليمية الخاصة بالجزائريين، إلا أن محاولته أجهضت و لم تر النور حيث جوبهت بغضب الكولون. و قد امتنع هذا الوزير من هذا الموقف و قال: " ... إن المعمرين يعتبرون الأهالي من جنس بشري منحط لا يصلح إلا للأعمال الشاقة دون أجر، و هذا الاعتقاد منهم هو الذي جعلهم يثورون على فتح مدارس للأهالي، إنهم يعتبرون الأهالي غير جديرين إلا بالإرهاق و القهر...".⁽⁴⁰⁾

لقد اعترض الكولون على السياسة التعليمية الفرنسية، و انتابتهم موجة من الغضب الشديد حينما لاحظوا أن المدارس تقام "لهذه الفئة من الأوغاد"، كما عارضت البلديات التي كانت تحت سيطرتهم كذلك تقديم المساعدات للمدارس باعتبارها "تجربة خطيرة و باهضة الثمن". و قد وقف الكولون هذا الموقف المعادي و المعارض لتعليم الجزائريين لأنهم كانوا يعتقدون أن التعليم سينير دربهم " و إذا عم بينهم فإن كلمتهم ستوحد و تكون الجزائر للعرب دون سواهم".⁽⁴¹⁾

و هكذا نرى أن السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر كانت متأثرة إلى حد بعيد بالسياسة الاستعمارية عموما، بل كانت تنفيذا لها، لأنها كانت إحدى أدواتها الرئيسية. و إذا كان تعليم أبناء الجزائر قد استمر خلال الحقبة الكولونيالية بكاملها فقد كان في حدود مالية و عنصرية و جغرافية ضيقة.

2 - كبار المعلمين

من غير الممكن رصد قائمة كاملة بكبار المعلمين الذين انتصبوا للتدريس خلال الحقبة الاستعمارية الفرنسية، لذلك سنكتفي بذكر نماذج منهم على سبيل المثال لا الحصر.

⁴⁰ عبد الله شريط، محمد الميلي: المرجع السابق، ص 219.

⁴¹ Charles-Robert Ageron : Histoire de L'Algérie Contemporaine, (Que sais-je ?), P.U.F, Paris, France, 1977, pp 66, 67.

أ - حميدة العمالي 1813-1873م

انتصب حميدة العمالي للتدريس في الجامع الكبير بالجزائر العاصمة، و كان متبحرا في عدة علوم كالحديث و الفقه و الأدب و البلاغة، تخرج على يده العديد من الطلبة لنوابغ، و قد وصف بشيخ الجماعة قبل ظهور الشيخ عبد القادر المجاوي. تولى منصب الإفتاء عام 1856م، و ظل فيه إلى غاية عام 1873م تاريخ وفاته. مارس العمالي وظائف أخرى كعضوية المجلس القضائي، كما تعاون مع زميله محمد بن مصطفى و أحمد البدوي و أحمد بن الحاج موسى في ترجمة نصوص تنظيم القضاء الإسلامي إلى اللغة العربية عام 1859.⁽⁴²⁾

ب - الشيخ عبد الحليم بن سماية 1866-1933م

كان الشيخ عبد الحميد بن سماية من العلماء الذين اجتمع بهم الإمام محمد عبده عند زيارته للجزائر عام 1903.⁽⁴³⁾ كان مدرسا بمدرسة الثعالبية و الجامع الجديد، و كانت طريقته في التدريس و فصاحة لسانه تثير إعجاب المفتشين الفرنسيين الذين يزورونه أثناء الدرس، و نتيجة لذلك فقد نال عدة أوسمة علمية تقديرا و اعترافا بفضله و كفاءته في أداء مهمته. و قد وصفه تقرير لأحد المفتشين بأنه " مثقف متمكن و متنفذ في مدينة الجزائر، و أن له درسين في المسجد عام و خاص، و هو يستعمل دفتر المناداة، و عدد الحضور يتراوح بين العشرة و الثلاثين".⁽⁴⁴⁾

ت - بوعلي الغوثي

تخرج بوعلي الغوثي من القسم العالي بمدرسة الجزائر، مارس القضاء قبل أن يعين للتدريس في مدينة بلعباس عام 1902م عن عمر يناهز 27 سنة. و قد وصفه تقرير تفتيشي فرنسي بأنه " ذكي و قادر على القيام بالعمل الموكل إليه، و هو يكتب و يتكلم اللغة

⁴² عبد الرحمان الجليلي: تاريخ الجزائر العام، الجزء الرابع، المرجع السابق، صص 279-282.

⁴³ الشيخ رشيد رضا: تاريخ الإمام محمد عبده، الجزء الأول، مطبعة المنار، القاهرة، مصر د.ت، ص 128.

⁴⁴ عبد الرحمان الجليلي: "جوانب من كفاح الشيخ عبد الحليم بن سماية السياسي و الثقافي"، الأصالة، مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية بالجزائر العدد 13، عام 1973، ص ص 199-212.

الفرنسية جيدا، و لكن صحته علية ". و انطلاقا من هذه الاعتبارات، فقد اقترحتة هيئة التفتيش لمنصب مدرس بالجامع الكبير بتلمسان الذي نقل إليه عام 1907م. و نتيجة لذلك فقد بقي منصب جامع سيدي بلعباس شاغرا، فخلفه عبد القادر منصور لمدة وجيزة، لأن هذا الأخير استدعي لممارسة وظيفة أستاذ في بلاد السينغال، و عين مدرس آخر في هذا الجامع و هو الحبيب مالكي الذي كان هو الآخر من خريجي القسم العالي بمدرسة الجزائر.⁽⁴⁵⁾

ث - الشيخ عبد القادر المجاوي 1848م-1913م

يعتبر الشيخ عبد القادر المجاوي من العلماء الكبار الذين يمكن تسميتهم إسم دوائر المعرفة بسبب غزارة علمه و تنوع معارفه و نبوغه في مختلف الفنون والعلوم. و قد وهب الشيخ عبد القادر المجاوي نفسه للعلم و التعليم، حيث تخرج على يده عدد كبير من العلماء الجزائريين منهم العالم حمدان لونيبي أستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس و غيره. و قد ترك الشيخ المجاوي إلى جانب نشاطه في مجال التربية و التعليم عدة مؤلفات تقدر بـ 13 كتابا تتناول عدة موضوعات حول اللغة العربية و علومها، و كان من رجال الإصلاح الديني حيث حارب البدع و الخرافات، توفي بقسنطينة عام 1913م، و قد ترجم له الشيخ الحفناوي في كتابه تعريف الخلف برجال السلف.⁽⁴⁶⁾

ج - عبد المجيد بوجمعة

استخلف عبد المجيد بوجمعة منصب الشيخ حمدان لونيبي في التدريس بالجامع الكبير بقسنطينة، و كان عدد تلاميذه عام 1913م يقدر بنحو 63 تلميذا، و هو عدد مرتفع، منهم عشرون تلميذا فقط من مدينة قسنطينة. أما الباقون فكانوا من خارجها و خاصة من باتنة و المسيلة و سطيف و بجاية و غيرها. و قد أشاد مفتش التعليم السيد

⁴⁵ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثالث، ص ص 119، 120.

⁴⁶ رابح تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح و التربية في الجزائر، المرجع السابق، ص ص 106، 107.

(دورنون) (Dournon) بنشاطه و طريقته في التدريس. و استمر يباشر مهامه خلال فترة الحرب العالمية الأولى (1914-1918). و كان يجمع بين التدريس في المدرسة الشرعية و التدريس في الجامع الكبير الأمر الذي جلب له سخط مسؤوليه و لاسيما مفتشه - الذي كان هو الآخر يجمع بين منصبتين لأنه كان أيضا مدير مدرسة قسنطينة الشرعية - فانتقده بسبب ذلك، كما إتهمه بتقديم تلاميذه على غيرهم أثناء امتحان الدخول إلى المدرسة الشرعية لأنه كان عضوا في لجنة الامتحان و الانتقاء. و قد تتلمذ على يديه علماء كبار منهم العالم و المفكر و فيلسوف الحضارة مالك بنو نبي الذي نوه به كثيرا في مذكراته، و بالمقابل انتقد كثيرا المفتش (دورنون) الذي اعتبره من أساطين الاستعمار الفرنسي.⁽⁴⁷⁾

ح - محمد العربي بلالي

تخرج محمد العربي بلالي من مدرسة قسنطينة الشرعية الفرنسية، ثم القسم العالي من مدرسة الجزائر، انتصب للتدريس بجامع عنابة، خلفا للسيد ابن العابد عام 1901م. و لما كان أصيل مدينة عنابة، فقد كان يرفض الانتقال منها حسب تقرير مفتشه السيد (شارل سان كالبر)، إلا أنه ربط موافقته على نقلته إلا بتحقيق شرط واحد و هو شغور إحدى مناصب المدارس الشرعية الثلاث، و كان يتقاضى راتبا هزيلا لا يكفيه لسد حاجاته اليومية و حاجة عائلته التي كانت كثيرة العدد، حيث يقدر بـ 75 فرنكا فرنسيا، لذلك كان يقدم دروسا إضافية للشباب المترشح لدخول إحدى المدارس الشرعية الثلاث. و سجل مفتشه أن هناك مواظبة في حضوره و حضور تلاميذه، و التزاما بالمواد المقررة في البرنامج. و كان بلالي يقدم دروسا عامة و أخرى خاصة بتلاميذ المدارس الابتدائية أيام الخميس و الأحد، كما كان يلقي دروسا في التوحيد خلال شهر رمضان المعظم. و إذا كان مفتشه السابق قد أشاد به في مختلف تقاريره، فإن المفتش الجديد و هو (دورنون) كان له رأي مخالف فيه تماما

⁴⁷ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 141، 142.

حيث وصفه بأنه "... غير مؤهل للوظيفة التي يشغلها، و أنه قضى في التعليم خمسة عشرة سنة، و أنه شخص لا يوثق في كلامه..." (48).

و ليقع الاختصار على هذا القدر من كبار المعلمين الذين ذاع صيتهم و علا كعبهم خلال الحقبة الكولونيالية الفرنسية. و تطول القائمة لو أردنا ذكر معلمين كبار آخرين، و قد اقتصرنا على جملة منهم للدلالة على كثرة هذه الطائفة من رجال الثقافة في الجزائر حينئذ، و هي على كل حال ظاهرة إيجابية، خاصة و أن هؤلاء كانوا قد تمكنوا من فرض وجودهم بمختلف الطرق في الحقل الثقافي الجزائري كرجالات علم و ثقافة، و ربما كانوا يخفون مودتهم و يكظمون غضبهم أحيانا تجاه السياسة الكولونيالية الجائرة التي كانت تطالهم كما كانت تطال سائر إخوانهم الجزائريين. و أما الذين كان لهم علم غزير و ثقافة واسعة، و لم يتمكنوا من التأقلم مع معطيات السياسة الفرنسية، أو لم ينجح الفرنسيون في تدجينهم فقد هاجروا أو هجروا أو تم نفيهم.

3 - هجرة العلماء

لا يمكن الحديث عن هجرة علماء الجزائر إلى الخارج خلال الحقبة الاستعمارية الفرنسية دون الإشارة إلى الجدل الديني و اللفظ السياسي التي أثارته هذه المسألة في بداية الاحتلال، و هو في واقع الأمر استمرار للجدل الفقهي القديم الذي عرفناه فيما مضى في قضية الأندلسيين الذين هاجروا من بلادهم إلى المغرب. فالحديث إذا عن هذا الموضوع لم يكن وليد الظاهرة الاستعمارية الفرنسية، و إنما كان سابقا لها بكثير، بل أننا إذا رمنا التعمق أكثر فيه لقلنا أن هذا الجدل ارتبط بمخيال المسلمين بحدث هام في تاريخهم و هو هجرة نبي الخلق سيدنا محمد - صلى الله عليه و سلم - من مكة إلى المدينة عام 622م. و لو لا الإطالة التي قد تخرجنا عن نطاق دراستنا لخضنا فيه، لذلك نكتفي بالقول أنه في بداية

⁴⁸ أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص ص 145، 146.

الاحتلال الفرنسي للجزائر طرح السؤال الفقهي الآتي: هل يجوز للمسلم الإقامة و العيش تحت سلطة دولة مسيحية أم أنه ملزم بمبارحة بلده و الهجرة إلى مكان آخر؟

لقد أجاب بعض علماء الجزائر و نخبها و قادتها و زعماء رأيها في ذلك الحين على هذا السؤال، و منهم الأمير عبد القادر الذي قال بوجوب الهجرة، و كان دليله على ذلك ورود عدة أحاديث نبوية شريفة تحت على ذلك منها قوله صلى الله عليه و سلم: " أنا بريء من مسلم يقيم بين أظهر الكافرين".⁽⁴⁹⁾

و الواقع أن الفرنسيين كانوا حينئذ قد اجتهدوا من أجل التصدي لهذه الفتوى التي توجب على المسلمين الجزائريين الهجرة من بلادهم التي تحولت إلى "دار كفر" أو "دار حرب" وفقا للتمثيلات الدينية السائدة حينئذ و التوجه إلى بلد إسلامي للمحافظة على دينهم والعيش في أمن و آمان.

و قد تولى هذه المهمة (ليون روش) (Léon Roches) الذي كلفه الجنرال (بيجو) (Bugeand) سيء السمعة بمهمة تنصرف إلى استصدار فتوى من علماء مسلمين تلزم الجزائريين بالبقاء في بلادهم.

و تبعا لذلك زار تونس و استطاع بمساعدة أحد التيجانيين أن يناهها من علماء القيروان، ثم أجرى اتصالات مع علماء الأزهر بمصر فصدّقوا عليها، كما صدّق عليها شريف مكة والطائف، ثم أرسلها إلى السلطات الفرنسية عام 1841م، فعملت على الترويج لها في أوساط الجزائريين.⁽⁵⁰⁾

⁴⁹ جمال قنان: نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر، د.م.ج، الجزائر، 1993، ص 142.

⁵⁰ حول هذا الموضوع ينظر:

- يوسف مناصرية: مهمة ليون روش في الجزائر و المغرب 1832-1847، م.و.ك، الجزائر، 1990، ص ص 23-34.

- يوسف مناصرية: "ليون روش داخل جيش الأمير عبد القادر"، سيرتا، مجلة تاريخية اجتماعية يصدرها دوريا معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، العدد 9/8، 1983، ص ص 5-18.

- Léon Roches: Dix Ans à Travers l'Islam (1834-1844), Préface de M.Carraby, Paris, France, 1904, pp 152-183.

و الحقيقة أن الهدف الاستراتيجي للفرنسيين من وراء استصدار هذه الفتوى لم يكن يتعلق بجواز أو عدم جواز بقاء الجزائريين تحت سلطة "الكافر"، و إنما كان بغرض دفع الجزائريين للاستسلام و الركون إلى الدعة و الاستكانة و التخلي عن المقاومة المسلحة التي كانت مشتعلة حينئذ. و السؤال الذي يطرح في هذا السياق. ما هي الحقيقة التاريخية لهجرة الجزائريين من بلدهم؟ و هل للدوافع الدينية دور في ذلك؟ أم أن هذه الظاهرة كانت لها مسوغات أخرى؟

حقا أن الجزائريين هاجروا في بداية الاحتلال و استمرت هجرتهم خلال الحقبة الاستعمارية برمتها، و تفرقوا شذرا مذرا في بلاد الإسلام من مغربها إلى مشرقها طلبا للعيش في كنف الإسلام و الحرية الدينية، و قد هاجروا إلى المغرب بحكم روابط الدين و الأخوة و معطيات التاريخ و الجغرافيا، كما هاجروا إلى المشرق لأن سحره و جاذبيته كانت دائما عالقة في أذهانهم، فالشرق عندهم كان مرادفا لمكة و المدينة، و بغداد، و دمشق، و القاهرة، و الأزهر، و اسطانبول، و القدس، و هي مدن و عواصم لها مكانتها الروحية و الحضارية في قلوب الجزائريين و قلوب المسلمين إجمالا، و لكن أليس القول بأن هجرتهم أساسها ديني صرف فيه ابتعاد عن الحقيقة؟.

يجب ألا ننسى أنهم هاجروا للفكاك من مضايقات الإدارة الاستعمارية الفرنسية و سياستها الخرقاء، و هي التي أعطت أوامرها باستيلاء الكولون على أراضيهم، و تعرضهم للعقوبات الصارمة بعد فشل الانتفاضات و المقاومات. و لا نحتاج لإقامة الدليل على أن المحتل الفرنسي كان يهدف إلى تجريد السكان من كل ممتلكاتهم و التضييق عليهم. و الحقيقة أن أخبار هجرة عموم الجزائريين لا تهمنا كثيرا في هذا السياق، لأن الذي يهمنا هو هجرة العلماء. و لا شك أن أسباب هجرتهم لا يمكن فصلها عن الأسباب العامة لتلك الهجرة. و بما أنهم كانوا يشكلون الصفوة المستنيرة، فقد تكون الأسباب المتعلقة بالجانب العلمي والديني مقدمة عن سائر الأسباب الأخرى. و لما كان عدد علماء الجزائر الذين

هاجروا أو هجروا أو نفوا كبيرا، فإنه من العسير ضبط قائمة بأسمائهم لاقتفاء آثارهم في بلد الاستقبال، لذلك سنكتفي بالإشارة إلى البعض منهم:

أ - محمد بن محمود ابن العنابي (1725م-1850م)⁽⁵¹⁾

هو محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائري، و شهرته ابن العنابي، و شهرة جده الأعلى كذلك حسين بن محمد العنابي نسبة إلى مدينة عنابة، و كان على مذهب الحنفية. عاش ابن العنابي لفترة طويلة تتوزع على نهاية القرن 18م، و بداية القرن 19م. و غني عن البيان أنها تعد من أخرج الفترات التاريخية ليس فقط بالنسبة للجزائر، و إنما أيضا بالنسبة للدولة العثمانية و العالم الإسلامي برمته. فقد عاصر الثورة الفرنسية عام 1789م صاحبة مبادئ (الأخوة و المساواة و العدالة)، و تحرشات المسيحيين ضد الجزائر و حروبهم عليها، و كان شاهدا أيضا على الحروب و الفتن الداخلية التي كانت تعصف بالجزائر كثورة الطريقة الدرقاوية و ابن الأحرش و غيرهما، و الصراع على السلطة بين الطائفة التركية بالجزائر.

تولى ابن العنابي عدة وظائف رسمية، أهمها وظيفة القضاء الحنفي في عهد الداوي عمر باشا (1814م-1816م). و قد دعى ابن العنابي إلى التجديد الإسلامي و إلى الصحوة منذ عام 1826م في كتاب ألفه في مصر تحت عنوان (السعي المحمود في نظام الجنود) و رجع بعد ذلك إلى وطنه الجزائر الذي احتله الفرنسيون عام 1830م، فوضعه قائدهم الجنرال (كلوزيل) (Clauzel) في السجن بسبب موقفه المعارض لتسليم المساجد للجيش الفرنسي، ثم وجه له تهمة التآمر ضد الوجود الفرنسي، و على إثر ذلك تم نفاه إلى مدينة الإسكندرية المصرية، حيث تولى بها منصب الإفتاء، و بقي فيه إلى أن قضى نحبه هناك عام 1850م.

ب - المفتي مصطفى ابن الكبابي (1189 هـ - 1277 هـ)

⁵¹ للمزيد من الإطلاع حول حياة و آثار محمد بن محمود ابن العنابي ينظر:

- محمد بن محمود ابن العنابي: المصدر السابق.

- أبو القاسم سعد الله: محمد بن العنابي رائد التجديد الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990.

ولد ابن الكبابي بالجزائر العاصمة، و كان عالما و مدرسا للفقهاء، و الحديث و النحو، و المنطق و بعض المتون. تولى منصبا على المذهب المالكي خلال السنوات الثلاثة الأخيرة للعهد العثماني (1827م-1830م). و كان أحد الشخصيات التي قابلت اللجنة الإفريقية التي أوفدتها فرنسا للتحقيق في الجزائر عام 1833م، فقال رأيه بصراحة فيما يخص الأحوال الشخصية و القضاء.

و كان رأيه معارضا لسياسة الفرنسيين بالجزائر في المجال الديني، فاتهموه هو الآخر بالتمرد و العصيان والعداء، فأصدروا حكمهم بنفيه رفقة عائلته إلى جزيرة (القدسية مارغاريت) (S.TMargarite) عام 1843م، غير أنهم غيروا له وجهة النفي إلى الإسكندرية بمصر التي وصلها يوم 24 يونيو من عام 1843م، فنزل ضيفا عند المفتي الحنفي ابن العنابي الذي أكرم نزله، و بقي بها كثيرا يتولى الفتوى على مذهب الإمام مالك إلى أن توفي عام 1277 هـ.⁽⁵²⁾

ت - حمدان الونيسي 1856-1920م

عرف حمدان الونيسي بالصلاح و التقوى و تخرج عليه العديد من علماء الجزائر أمثال عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي و الطيب العقبي و غيرهم.⁽⁵³⁾ و كان له تأثير بعيد المدى على شخصياتهم، و خاصة عبد الحميد بن باديس الذي تعلم منه اللغة العربية و الثقافة الإسلامية بمدينة قسنطينة قبل أن يسافر إلى جامع الزيتونة بتونس عام 1908م. و ظل عبد الحميد بن باديس يذكره بإجلال كبير طوال حياته، حيث

⁵² عبد الكريم بوصنصاف و آخرون: معجم أعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين، منشورات مخبر الدراسات التاريخية و الفلسفية، جامعة منتوري قسنطينة، 2002، ص ص 121، 123.

⁵³ محمد صالح الجابري: النشاط العلمي و الفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983، ص 59.

كان يوصيه أن (يقرأ العلم للعلم لا للوظيفة و لا للرغيف)، و قد عاهده ألا يشتغل في الوظائف الحكومية الرسمية حتى لا تغل يديه بالقيود الاستعمارية الفرنسية الثقيلة.⁽⁵⁴⁾

كان حمدان الونيسي من كبار الملاك و النواب و المفتين والقضاة الرسميين بقسنطينة، و قد تبنى مواقف جريئة تتعلق بعدة قضايا وطنية مثل الأرض و القضاء الإسلامي و التعليم العربي و الضرائب و السياسة الأهلية. و كان من الموقعين على عريضة أعيان و وجهاء مدينة قسنطينة عام 1891م، التي تضمنت مظالم أهل قسنطينة ضد سلطات الاحتلال الفرنسي. و بفعل هذه المواقف فقد طرد من التدريس بالجامع الكبير عام 1910م، فاختار بعدها الهجرة إلى بلاد الحجاز و الإقامة بها إلى غاية وفاته هناك عام 1920.⁽⁵⁵⁾

ث - علماء آخرون

خلال السنوات السبع عشرة الأولى من الاحتلال 1830م-1847م، فقدت الجزائر عددا هائلا من علمائها و أعيانها و نخبها السياسية والثقافية و قد استمرت هذه الموجة طيلة القرن 19م برمته، حتى كادت الجزائر تفرغ من قادتها و متعلميها.⁽⁵⁶⁾

و قد غصت كتب التاريخ بالعلماء الجزائريين المهاجرين و الذين طاهم النفي و التهجير إلى البلاد الإسلامية مثل أبي حامد المشرفي الذي كانت له مكتبة غنية بالكتب و هاجر إلى المغرب الأقصى في بداية الاحتلال رفقه أسرته حاملا معه كتبه التي أنقذها من الضياع، و كذلك مصطفى الأغواطي خريج المدرسة الثعالبية الشرعية الذي هاجر إلى موريطانيا في بداية القرن العشرين، و انتصب للتدريس هناك، و قد تتلمذ على يده العديد من الأعيان و منهم الرئيس الموريطاني السابق مختار ولد دادة.⁽⁵⁷⁾

⁵⁴ رابح تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح و التربية في الجزائر، المرجع السابق، ص 164.

⁵⁵ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 130، 131.

⁵⁶ أبو القاسم سعد الله: هجرة بعض الأعيان الجزائريين 1830-1847، أعمال الملتقى الوطني حول الهجرة الجزائرية إبان مرحلة الاحتلال 1830-1962، المنعقد بالجزائر يومي 30 و 31 أكتوبر 2006، منشورات وزارة المجاهدين الجزائر، 2007، ص 29.

⁵⁷ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الخامس، المرجع السابق، ص 387-389.

و من أبرز العلماء الذين هاجروا إلى البلاد التونسية كذلك قدور بن رويلة من الجزائر العاصمة، و محمد بن الحاج من سيدي عقبة، و مصطفى بن عزوز مؤسس زاوية نفطة الشهيرة، و هناك عائلات أخرى اشتهرت بالعلم نفتها فرنسا إلى البلاد التونسية، أو اختارت الهجرة إليها مثل عائلة المدني و السنوسي، و بوشوشة، و الثعالي، والقلاقي، واللقاني، و البعثات الميزابية التي قادها الشيخ أبو اليقظان و إبراهيم بيوض و بعثات عبد الحميد بن باديس و جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و الأحزاب السياسية الجزائرية منذ الحرب العالمية الأولى و غير ذلك.⁽⁵⁸⁾

و هكذا نرى أن علماء الجزائر كانوا قد هاجروا من الجزائر خلال الحقبة الكولونيالية الفرنسية للفكاك من جور الفرنسيين، و إذا كانت للهجرة بصفة عامة أسباب سياسية و طائفية و اجتماعية و اقتصادية و دينية و علمية، فإن هجرة العلماء الجزائريين في تلك الفترة ارتبطت أساسا بالعامل السياسي و هو جور الفرنسيين و تعديهم عليهم بأنواع المظالم، و في الأخير نقول مرة أخرى أنه من الصعب رصد كل العلماء الجزائريين الذين ارتحلوا من أرض الجزائر خلال الفترة الاستعمارية و حطوا عصا ترحالهم في البلاد الإسلامية و بيان وظائفهم و نوع ثقافتهم، و مكانتهم العلمية و الأدبية هناك، خاصة و أن العالم الإسلامي كان في ذلك الحين وطنًا واحدًا، و أن الحدود التي رسمت بين وحداته لم تكن في الواقع إلا نتيجة للاستعمار الأوروبي الحديث.

4 - التعليم و حركة التأليف

كانت حركة التأليف مرادفة لحركة التعليم، و قد كانت نشيطة خلال الحقبة الاستعمارية الفرنسية و لاسيما خلال مرحلة اليقظة الفكرية التي عرفت الجزائر خلال القرن العشرين. و قد أنجبت الجزائر عددا لا حصر له من العلماء والكتاب والمؤلفين الذين ساهموا بكتاباتهم في مختلف فنون العلم والمعرفة. و في ما يلي نقصر الكلام على أربعة مؤلفين

⁵⁸ أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص 391.

نقدمهم على سبيل المثال و هم: أبو القاسم الحفناوي، و محمد بن أبي شنب، وأحمد توفيق المدني، و مبارك المليي.

أ - الشيخ أبو القاسم الحفناوي 1852م-1942م

أخذ الشيخ أبو القاسم الحفناوي العلم في البداية في زاوية علي بن عثمان بنواحي طولقة، بعد أن تعلم عن والده مبادئ النحو والصرف والعروض و الفقه والتوحيد والمنطق والحساب و البلاغة، ثم انتقل إلى زاوية ابن أبي داود بالزاوية التي اعتبرها في مؤلفاته أم الزوايا العلمية، و بعدها ذهب إلى زاوية نفطة بالجنوب الغربي التونسي، و هي زاوية رحمانية عزوزية شهيرة بالعلم، ثم توجه إلى الجزائر العاصمة عام 1883م، و تعلم اللغة الفرنسية على يد رئيس المترجمين السيد (أرنو) (Arnaud)، كما أخذ أيضا أصول العلوم العصرية على يد مدرسين فرنسيين. انتسب إلى جريدة المبشر للتحليل و التصحيح، فكان يترجم الوثائق الرسمية الفرنسية، و يشيد بالآثار العلمية الفرنسية، فمدح الطبيب الفرنسي (لويس باستور)، و تحدث عن دوره في اكتشاف داء و دواء الكلب، غير أنه ربط بينه و بين دور الطب العربي في هذا المجال. يضاف إلى هذا أنه ساعد الفرنسيين (ديون و كوبولاني) (DupontetCopolani) في تأليف كتابهما الشهير حول الطرق الدينية الإسلامية.⁽⁵⁹⁾

باشر الشيخ أبو القاسم الحفناوي مهام التدريس في الجامع الكبير بالجزائر العاصمة، و كذلك مهام الإفتاء على المذهب المالكي ابتداء من عام 1836م، إلا أن شهرته في التأليف فاقت شهرته في التدريس و الإفتاء. و من أهم أعماله في التأليف مؤلفه الكبير (تعريف الخلف برجال السلف). و هو موسوعة ضمنها تراجم لعدد كبير من العلماء و الأدباء و المؤرخين والفقهاء الجزائريين الذين عاشوا خلال القرنين 13 و 14هـ. و كان هدفه من وراء هذا التأليف هو تذكير الجزائريين بمآثر أسلافهم في العلوم و الآداب لغرض الاقتداء

⁵⁹ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثالث، المرجع السابق، ص ص 88-90.

و الاعتزاز بهم في زمن أطبق فيه ليل الاستعمار الطويل. و للشيخ أبي القاسم الحفناوي أعمال أخرى مبسوبة في كثير من الكتب و الدراسات.⁽⁶⁰⁾

ب - الأستاذ الدكتور محمد بن أبي شنب 1869م-1929م

ولد محمد بن أبي شنب بالمدينة عام 1869م، و سافر إلى الجزائر العاصمة عام 1886م، و انضم إلى مدرسة المعلمين (L'École Normale) التي تخرج منها أستاذا للغة الفرنسية. و في عام 1894م تحصل على شهادة في اللغة العربية، و في عام 1896م انضم إلى سلك طلبة البكالوريا فحصل على شهادتها الأولى، ثم تحول لدراسة اللغات الأجنبية: الإسبانية، و الألمانية، و اللاتينية، و الفارسية، و التركية، والعبرانية، و تحكم فيها بإتقان كبير. و في عام 1898م عين أستاذا بالمدرسة الكتانية بقسنطينة لتدريس النحو و الصرف و علوم الأدب و الفقه، ثم اشتغل مدرسا بالمدرسة الثانوية بالمدينة، بعدها عين عميدا لكلية الآداب بالجزائر. و في عام 1920م انتخب عضوا بالمجلس العلمي العربي الذي كان مقره في دمشق بسوريا، و هي السنة التي تقدم فيها لنيل شهادة الدكتوراه بتأليف بحثين هما: شاعر العباسية أبو دلالة، و بحث لغوي حول الألفاظ التركية و الفارسية المستعملة في لغة أهالي الجزائر، و قد نالها بدرجة ممتاز. و بسبب غزارة علمه، فإن الإدارة الفرنسية أثقلت صدره بالأوسمة و النياشين أهمها نيشان العلوم والمعارف، و وسام جوقة الشرف عام 1920م.⁽⁶¹⁾

حقق محمد بن أبي شنب العديد من الكتب منها:

- كتاب " عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية " لأبي العباس الغبريني المتوفى عام 714هـ.

- كتاب " البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان " لابن مريم التلمساني.

⁶⁰ رايح تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح و التربية في الجزائر، المرجع السابق، ص 107.

⁶¹ عبد الرحمان بن محمد الجيلالي: محمد بن أبي شنب حياته و آثاره، م.و.ك، الجزائر، 1983، ص ص 13-19.

- كتاب "طبقات علماء إفريقيا" لأبي العرب التميمي، مع كتاب "علماء إفريقيا" لمحمد الخشني، و كتاب "طبقات علماء تونس" لأبي العرب كذلك. و قد طبعت هذه الكتب الثلاث في باريس ضمن مجلد واحد عام 1915م.⁽⁶²⁾

ت - أحمد توفيق المدني 1899م-1983م

ولد أحمد توفيق المدني عام 1899م، و درس في المدرسة الخلدونية و جامع الزيتونة بالبلاد التونسية. نفي إلى بلاد أجداده الجزائر عام 1925م بسبب مواقفه المناهضة للاستعمار الفرنسي، و كان عضوا بارزا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. و بعد اندلاع الثورة التحريرية عام 1954م، التحق بالقاهرة و انضم إلى جبهة التحرير الوطني التي قادت الثورة، له عدة مؤلفات منها:

- كتاب الجزائر.

- حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا 1492م-1792م.

- محمد بن عثمان باشا داي الجزائر 1766م-1791م.

- المسلمون في جزيرة صقلية و جنوب إيطاليا.

- حياة كفاح، و هو عبارة عن مذكرات و يقع في ثلاثة أجزاء.

- تاريخ شمال إفريقيا أو قرطاجنة، في أربعة أجزاء.

- هذه هي الجزائر.

- تحقيق مذكرات الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر.⁽⁶³⁾

ث - مبارك الملي 1898م-1945م

ولد مبارك الملي بقرية أولاد مبارك، و هي إحدى القرى التابعة إداريا لمدينة ميله في عمالة قسنطينة عام 1898م، التحق بمعهد الشيخ محمد الملي بميلة عن عمر يناهز خمسة

⁶² رايح تركي: المرجع السابق، ص 109.

⁶³ صالح بن نبيلي فركوس: المرجع السابق، ص 350، 351.

عشر عاما لدراسة العلوم العربية والشرعية، ثم انتقل إلى قسنطينة لتلقي العلم على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس. و بعد نحو سبعة أشهر سافر إلى تونس لإنهاء دراسته العليا فتحصل فيها على شهادة التحصيل و بعدها عاد إلى أرض الوطن عام 1922م ليساعد عبد الحميد بن باديس في مباشرة عمله التربوي. و قد نال إعجابه فأوفده إلى الأغواط عام 1923م للدعوة و التعليم، فأمضى فيها ثماني سنوات معلما و مبشرا بالإصلاح الديني والتربوي. و خلال مدة إقامته هناك تعرض مبارك الملي لمحاولة اغتيال من قبل أهل الطريقة الذين حاولوا اغتيال الشيخ عبد الحميد بن باديس أيضا، كما تعرض لضغوطات الإدارة الاستعمارية الفرنسية الأمر الذي أرغمه على العودة إلى مسقط رأسه بميلة لمواصلة نشاطه الإصلاحية. و في عام 1931م انتخبه أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عضوا في مجلسها الإداري ، و استمر فيه إلى غاية وفاته عام 1945م عن عمر يناهز الثامنة و الأربعين.⁽⁶⁴⁾

و اشتهر مبارك الملي بكتابه " تاريخ الجزائر في القديم و الحديث"، و قد انتهى فيه إلى آخر العهد الإسلامي و تحديدا إلى آخر عهد الدولة الزيانية. و بعد أن أنجز جزئين من هذا الكتاب أدركته المنية، فأكمل نجله محمد الملي الجزء الثالث و انتهى به إلى آخر الدولة العثمانية.

و إلى جانب ذلك ألف مبارك الملي كتابا آخر هو "رسالة الشرك و مظاهره"، و قد اهتم فيه كما يدل عنوانه بمحاربة الخرافات و البدع التي كان المستعمر الفرنسي يشجع على انتشارها بين الناس في ذلك الزمان. و من صفاته في مجال الكتابة التاريخية كما يذكر صديقه عبد الرحمان الجيلالي أنه كان "... صبورا دؤوبا على البحث مغاليا في التحقيق و التدقيق مع مهارة منقطعة النظير في المقابلة بين النصوص، و كانت له نظرة صائبة في استجلاء

⁶⁴ أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحية في الجزائر، المرجع السابق، ص 163، 164.

الغوامض، و حكم صادق في أسباب الحوادث و نتائجها، و مهارة في الترتيب و التبويب مع حسن سبك يجعل التاريخ كالسلسلة المفرغة...".⁽⁶⁵⁾

إن هؤلاء المؤلفين الذين ذكرناهم و الذين عسر علينا ذكرهم لضيق المجال هم الذين حافظوا على الثقافة العربية الإسلامية و كذلك اللغة العربية بجهودهم الفردية، و مشاركتهم في بعث اليقظة العلمية في الجزائر، و لو لا جهودهم و نشاطهم الصادق و الدؤوب لاندثرت تلك الثقافة منذ أواخر القرن 19م.

⁶⁵ عبد الرحمان الجيلالي: " من وحي ذكرى مرور أربعة عقود سنوية على وفاة العلامة النابغة الشيخ مبارك الميلي - رحمه الله -"، الثقافة مجلة تصدرها وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر، العدد 80، عام 1984، ص ص 189-192.